4

سفينة
الأصدقاء

مع فرس النهر

على ضفاف النيل

تأليف : سامى البجيرمى

رسوم : محمـــد فايـــد

سَأَلَ مُحَمَّدٌ : « أَيْنَ نَحْنُ ؟ » .

رَدَّ فَرَسُ النَّهْرِ : « نَحْنُ عَلَى ضِفَافِ أَعَالِي نَهْرِ النِّيلِ ، بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَةِ أَدِيس أَبَابَا ، عَاصِمَةِ دَوْلَةِ إِثْيُوبْيَا » .

بَدَأَ مُحَمَّدٌ يَتَأَمَّلُ الْمَكَانَ كَعَادَتِهِ ، فَوَجَدَهُ مَكَاناً سَاحِراً كَأَرْوَعِ مَا تَكُونُ الأَمَاكِنُ ؛ الْخُضْرَةُ تُحِيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَالْمَاءُ أَمَامَهُ صَافٍ رَائِقٌ ، وَهَادِئٌ ، وَالأَشْجَارُ عَالِيَةٌ وَالْحَشَائِشُ أَيْضاً كَذَلِكَ .

إنَّ المكانَ يُشبهُ لوحةً بديعةً ، كلُّ ما فيها مُتناسقٌ يبعثُ في النفسِ إحساساً رائعاً بالجمالِ ، وإيماناً عميقاً بقدرةِ الله ..

الحيواناتُ تلعبُ ، وتلهو في هدوءٍ لم يُعكِّرْ صفوَهُ في تلكَ اللحظةِ شيءٌ .. أفراسُ النهرِ تستمتعُ بالماءِ في سعادةٍ فتغطسُ تحتَ الماءِ تارةً (مرَّةً) وتسبحُ فوقَ صفحتِه تارةً أخرى .

وبدأَ مُحمَّدٌ يتأملُ صديقَهُ بلونِه الرمادىِّ الرائعِ وجلدِه السميكِ جداً ورأسِه الكبيرةِ الضخمةِ ، وأقدامِه الأربعِ التى تُشبهُ خُفَّ الجملِ ، وبكلِّ قدمٍ منها أربعُ أصابعَ كبيرةٍ ذاتِ أظفارٍ جامدةٍ كالحوافرِ ، كما أنَّ لهُ فماً واسعاً جداً ، به أنيابٌ أقلُّ ما تُوصفُ به أنها كبيرةٌ جداً ..

وتَعَجَّبَ مُحَمَّدٌ .. كيفَ اسْتَطَاعَتْ مَرْكَبُهُ الصَّغِيرةُ حَمْلَ هَذا الكائنِ الضَّخْمِ ، فارْتِفَاعُ كَتِفَيْهِ عَنِ الأَرْضِ وهُو وَاقِفٌ حَوَالَى المِتْرِ

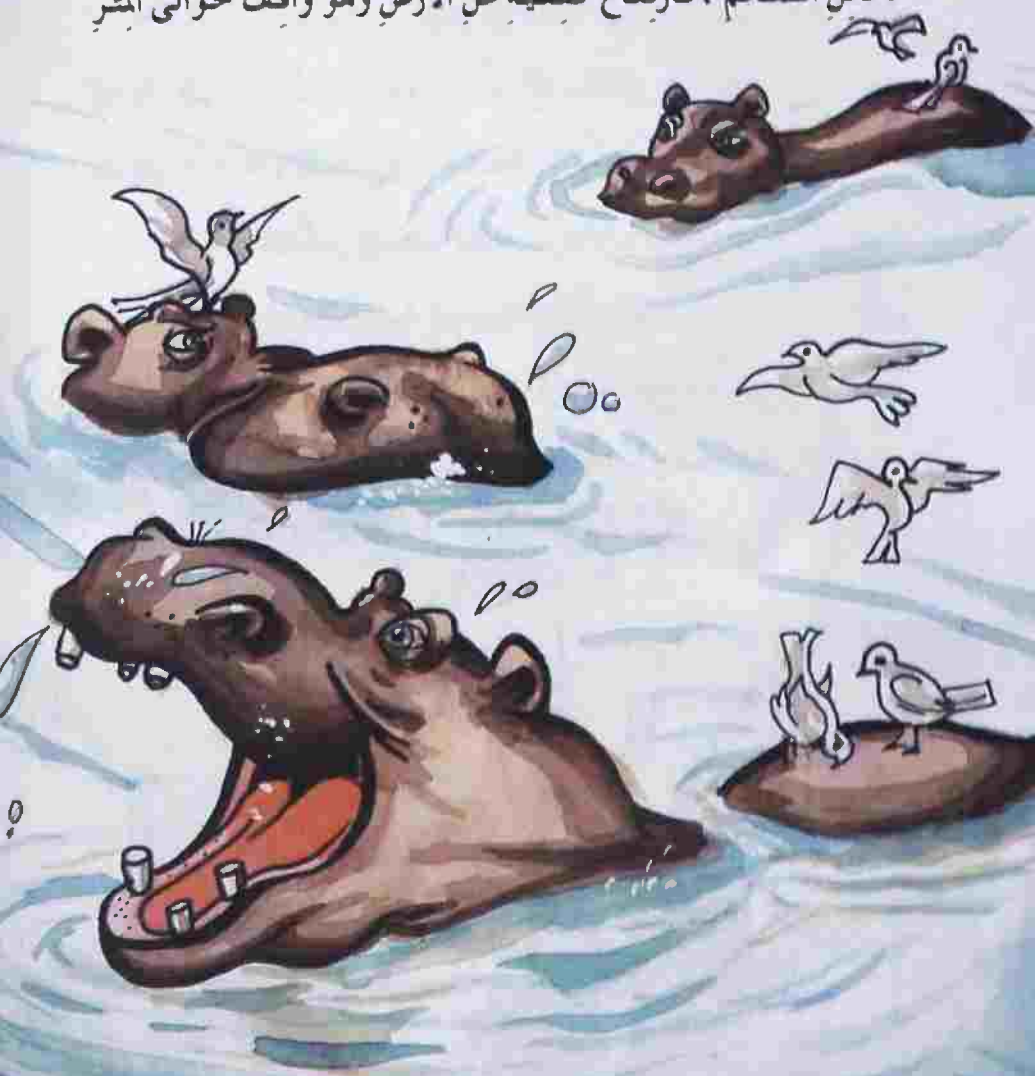

ونِصْفِ المِتْرِ ، وطُولُهُ مِنْ أَنْفِهِ إلى مَنْبِتِ ذَيْلِهِ ثَلاثَةُ أمْتَارٍ ونِصْفُ المِتْرِ ، وقَدَّرَ مُحَمَّدٌ وَزْنَ صَدِيقِهِ بحَوَالَى أَرْبَعةِ أَطْنَانٍ !! .

وبلا مُقدِّمات ، تركَ فَرَسُ النَّهْرِ صَديقَهُ مُحَمَّداً ، يَسْتَمْتِعُ بجَمَالِ المكَانِ وجَرَى إلى النَّهْرِ ليَقْذِفَ بنَفْسِهِ فيهِ .. ومِنْ عَلَى الشَّاطئِ بَدَأَ مُحَمَّدٌ يُراقِبُ فَرَسَ النَّهرِ ، الَّذى غَطَسَ فى الماء .

وبَدَأَ مُحَمَّدٌ يَنْظُرُ فى سَاعةِ يَدِهِ ؛ فَوَجَدَ خَمْسَ دَقَائِقَ قَدْ مَرَّتْ قَبْلَ أنْ يَظْهَرَ فَرَسُ النَّهْرِ الَّذى غَمَرَ نَفْسَهُ فى الماء .

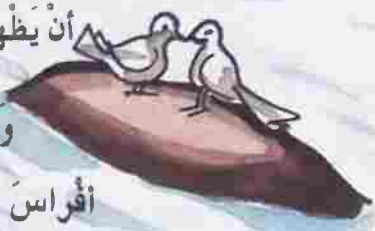

ولَكِنَّ مُحَمَّداً دَقَّقَ النَّظَرَ فَوَجَدَ أنَّ أفْرَاسَ النَّهْرِ تَتْرُكُ ـ عَادةً ـ آذَانَهَا ، وأعْيُنَهَا ، وأُنُوفَهَا خَارِجَ الماءِ .. وعِنْدَمَا ظَهَرَ فَرَسُ النَّهْرِ فَوْقَ صَفْحَةِ الماءِ كَانَ بِمَثَابَةِ قِطْعَةٍ صَغِيرَةٍ مِنَ الأرضِ تَسْتَخْدِمُهَا الطُّيُورُ كَمَهْبِطٍ لَهَا فى وَسَطِ الماءِ .

مَرَّ وَقْتٌ طَوِيلٌ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ فَرَسُ النَّهْرِ مِنَ الماءِ ؛ لِيَعْتَذِرَ لِصَدِيقِهِ مُحَمَّدٍ عَنْ تَأَخُّرِهِ ..

قَالَ فَرَسُ النَّهْرِ :

« آسِفٌ لِتَأَخُّرِي عَنْكَ وَلَكِنَّنِي سَعِيدٌ بِعَوْدَتِي إِلَى وَطَنِي » .

رَدَّ مُحَمَّدٌ : « أُقَدِّرُ ذَلِكَ !! وَلَكِنْ قُلْ لِي : هَلْ تُحِبُّونَ الماءَ إِلَى هَذَا الحَدِّ ؟!» .

أَجَابَ فَرَسُ النَّهْرِ : « إِنَّ أَفْرَاسَ النَّهْرِ تَعْشَقُ الماءَ ، فَتَقْضِي فِيهِ مُعْظَمَ نَهَارِهَا ، وَقَدْ تَخْرُجُ مِنْهُ قَلِيلاً مِنَ الوَقْتِ لِتَرْقُدَ عَلَى شَاطِئِهِ تَسْتَمْتِعُ بِحَرارَةِ الشَّمْسِ » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « وَهَلْ يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّكَ سَبَّاحٌ مَاهِرٌ ؟ » .

رَدَّ فَرَسُ النَّهْرِ : « طَبْعاً .. إِنَّنِي أَسْتَطِيعُ السِّبَاحَةَ لِمَسَافَةِ ثَلاثِينَ كِيلُو مِتْراً ، وَلَكِنْ لِلحَقِّ ، لا يَحْدُثُ ذَلِكَ فِي كُلِّ الأَحْوالِ ، وَلَكِنْ فِي المُعْتَادِ أَسْبَحُ حَوَالَى ثَلاثَةِ كِيلُو مِتْرات » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « وَمَتَى تَأْكُلُونَ إِذَنْ ؟ » .

رَدَّ فَرَسُ النَّهْرِ : « فِي اللَّيْلِ !! إِنَّنَا نَخْرُجُ فِي جَمَاعَاتٍ كَبِيرَةٍ لِلبَحْثِ عَنِ الطَّعَامِ ، حَيْثُ نَلْتَهِمُ الأَعْشَابَ وَالجُذُورَ ، فَنَحْنُ نَحْتَاجُ إِلَى كَمِّيَّاتٍ كَبِيرَةٍ مِنْهَا » .

قَالَ مُحَمَّدٌ :

« أَرَى أَنَّكُمْ أَقْوِيَاءُ !! وَأَظُنُّ أَنَّ قَائِدَكُمْ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَقْوَاكُمْ ؟» .

ضَحِكَ فَرَسُ النَّهْرِ ، فَظَهَرَتْ أَنْيَابُهُ قَوِيَّةً مُخِيفَةً وَقَالَ :

«بِالطَّبْعِ لاَ !! إِنَّ القَطِيعَ أَوْ جَمَاعَةَ أَفْرَاسِ النَّهْرِ تَتَكَوَّنُ فِى العَادَةِ مِنْ مِائَةِ فَرْدٍ ، تَحْكُمُهُمْ أُمٌّ كَبِيرَةٌ تُسَمَّى « الأُمَّ الرَّئِيسَةَ » ، وَتَسْتَوْطِنُ كُلُّ جَمَاعَةٍ مِنَّا أَحَدَ شَوَاطِئِ النَّهْرِ ، وَفِى دَاخِلِ الجَمَاعَةِ ، يَعِيشُ الأَفْرَادُ فِيمَا يُشْبِهُ « الحَلْقَةَ » ؛ حَيْثُ تَحْتَلُّ الإِنَاثُ مَرْكَزَهَا .. أَمَّا الذُّكُورُ فَيَكُونُ مَكَانُهُمْ فِى الأَطْرَافِ حَيْثُ تَتَوَلَّى مَهَمَّةَ حِمَايَةِ الجَمَاعَةِ مِنَ الأَعْدَاءِ » .

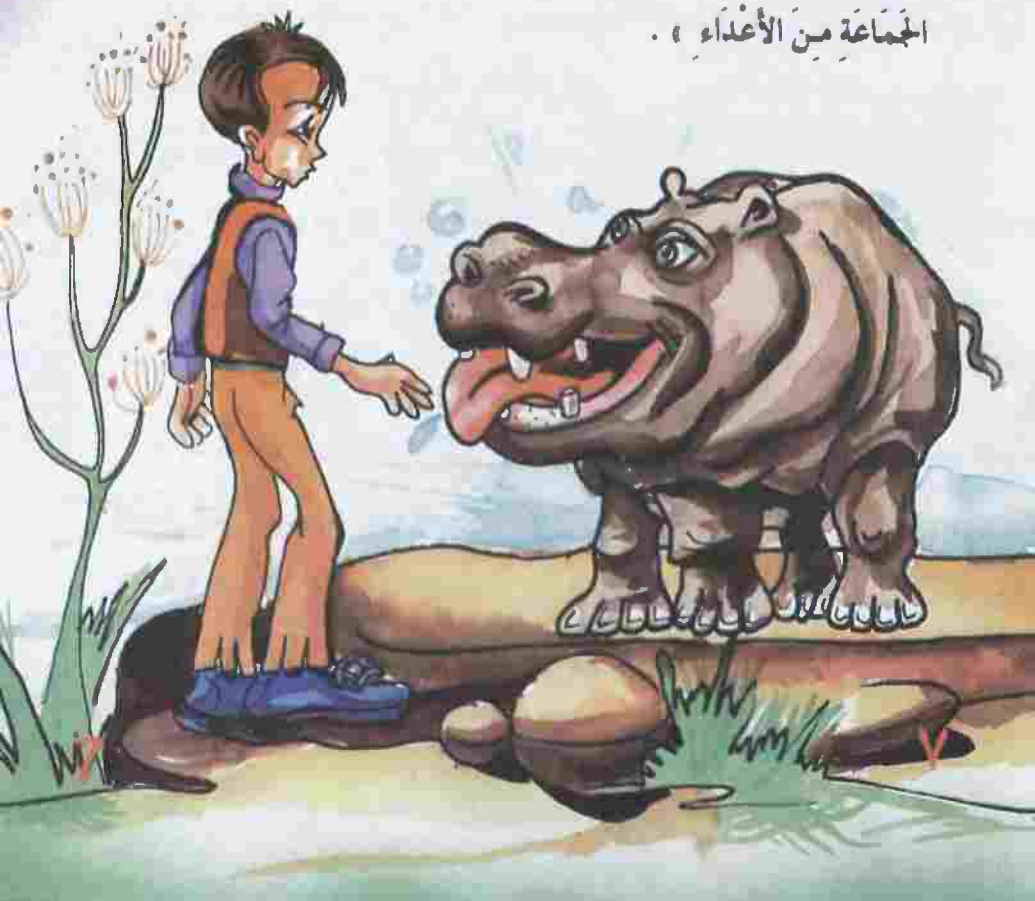

وقطع فرسُ النَّهرِ كلامَهُ ، ليَنظُرَ إلى معركةٍ حاميةٍ ، قامتْ بينَ فردَينِ منْ جماعتِه ، وفي لحظاتٍ ، احتدمتِ المعركةُ أكثرَ ، وبدأتِ الدِّماءُ تسيلُ بغزارةٍ ، ومُحمَّدٌ مندهشٌ وآسفٌ في نفسِ الوقتِ لما يحدثُ ، وخافَ في الوقتِ نفسِه منْ تلكَ الأنيابِ الضخمةِ ، الَّتي بدأَ يرى كيفَ تؤثِّرُ في الخصمِ وهوَ منْ نفسِ الجماعةِ ، ويتخيَّلُ ماذا يُمكنُ أنْ تفعلَ في العدوِّ ؟! .

قطعَ فرسُ النَّهرِ فترةَ الصمتِ ، وقالَ لمُحمَّدٍ :

« لا تحزنْ يا صديقي ! فإنَّ جراحَنا سُرعانَ ما تلتئمُ ، وإنْ كانتْ تتركُ أثراً واضحاً في الجسمِ » .

ردَّ مُحمَّدٌ :

« بالتأكيدِ !! ولكنْ قُلْ لي : لقدْ كُنتُ أظنُّكمْ أكثرَ منْ هذا العددِ فما سببُ قلَّةِ عددِكمْ ؟ » .

أجابَ فرسُ النَّهرِ :

« إنَّ عددَنا قليلٌ لأنَّ الأنثى تلدُ صغيراً واحداً كلَّ عامٍ بعدَ فترةِ الحملِ الَّتي تصلُ إلى ٢٤٠ يوماً ويكونُ صغيراً ضعيفاً فلا يزيدُ وزنُهُ عنْ ٤٨ كيلو جراماً ولا يزيدُ طولُهُ عنْ مترٍ واحدٍ فقط ! » .

تبسَّمَ مُحمَّدٌ وقالَ في نفسِهِ : « كلُّ هذا .. فقط ؟! » .

أكْمَلَ فَرَسُ النَّهْرِ كَلامَهُ :

« عَلَى أنَّ الصَّغِيرَ مِنَّا يَسْتَطِيعُ الوُقُوفَ عَلَى أقْدَامِهِ خِلالَ دَقَائِقَ بَعْدَ وِلادَتِهِ ، وتُدْخِلُهُ الأمُّ فِى الخَالِ إلى الماءِ حَتَّى يُتْقِنَ السِّبَاحَةَ ، وتُعَلِّمُهُ الأمُّ السِّبَاحَةَ إلى مُسْتَوَى الكَتِفَيْنِ ، حَتَّى إذا هَجَمَ عَلَيْهِ أىُّ عَدُوٍّ - مَهْمَا بَلَغَتْ قُوَّتُهُ - فَإنَّهُ يَسْتَطِيعُ سَحْبَهُ إلى الماءِ وهُنَاكَ يَسْتَطِيعُ إغْرَاقَهُ !!

وتتولَّى الأمُّ رِعَايةَ شُئونِ الصِّغيرِ .. ولَكنَّ قِلَّةَ التَّكَاثُرِ لَدَيْنَا لَيْسَتِ السَّبَبَ الوَحِيدَ فى قِلَّةِ أعْدَادِنا ، ولَكِنْ أيْضًا لِكَوْنِنَا هَدَفاً للصَّيَّادِين .. » .

وهُنَا تَعَالَتْ بَعْضُ الصَّيْحَاتِ فى المكَانِ ، وكَانَتْ لِبَعْضِ الصَّيَّادِينَ ؛ فَقَطَعَ فَرَسُ النَّهْرِ كَلامَهُ وقَذَفَ بِنَفْسِهِ فى الماءِ بَعِيداً ، هَرَباً مِنَ الصَّيَّادِينَ ، الَّذِينَ جَاءوا يَحْمِلُونَ أدَواتِهِمْ اسْتِعدَاداً للصَّيْدِ الثَّمِين ..

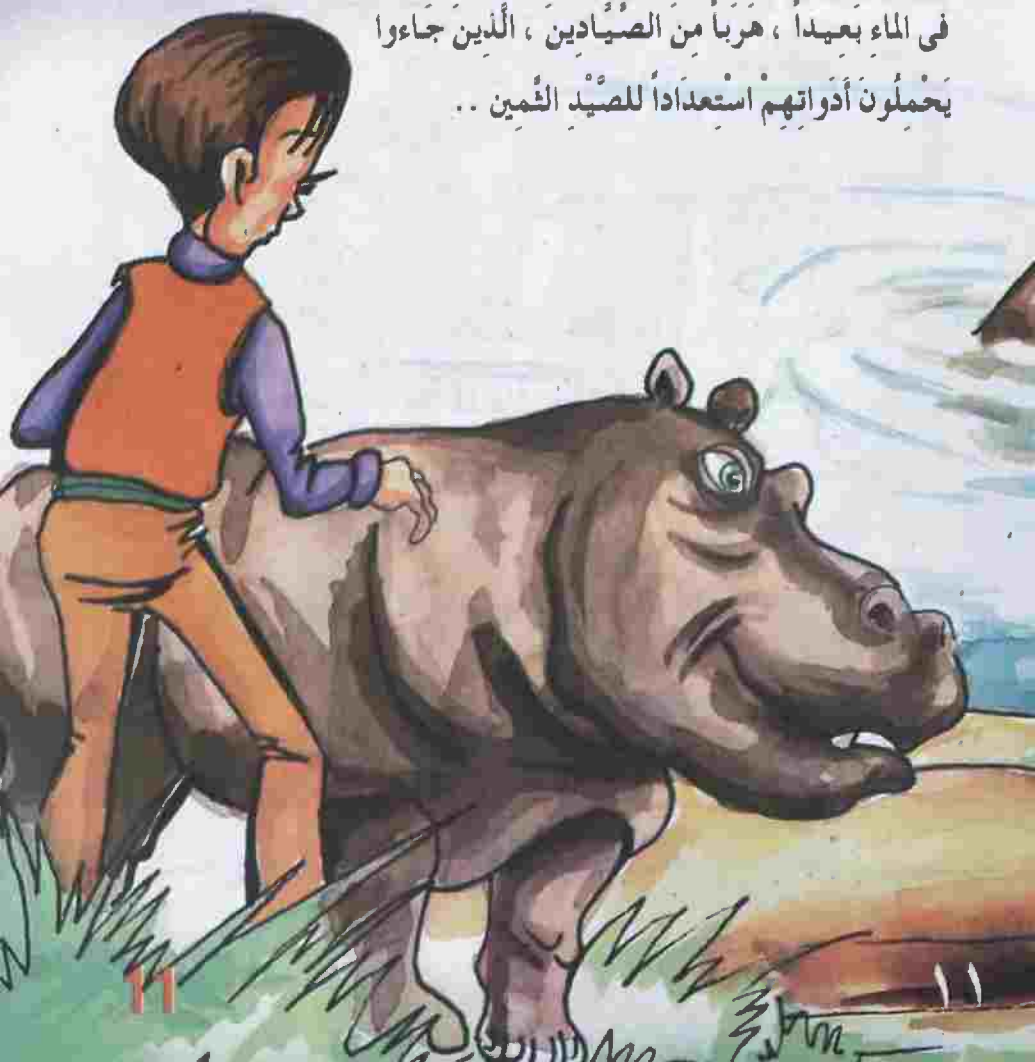

أصابت الدهشة مُحمَّداً ؛ لأنه لم ير الصيادين يحملون الحراب والسهام كعادة الصيادين فى إفريقيا ، ولكنه رآهم ومعهم قفص خشبى ضخم ، فاستغرب الأمر .

لحظات وكان الصيادون قد اقتربوا من المكان ليجدوا أفراس النهر بعيدة داخل الماء ومُحمَّداً وحده على الشاطئ ؛ فتقدم إليه أحد الصيادين ليسأله عن سبب وجوده فى هذا المكان .

ردَّ مُحمَّد : « إننى غريب عن هذه البلاد !! ولى سفينة ترسو بالقرب من هنا .. وجئت إلى هذا المكان بصحبة صديق لى !! » .

قال الصياد : « أين هو ؟ » .

أجاب مُحمَّد : « إنه الآن داخل النهر .. فقد جئت بصحبة أحد أفراس النهر !! » .

قال الصيَّاد : « أنت إذن صياد مثلنا ؟! » .

أجاب مُحمَّد : « كلا !! كلا بالتأكيد » .

واستطرد مُحمَّد وقال : « ولكن قل لى : لماذا تصيدون فرس النهر ؟! » .

قال الصيَّاد : « إنَّ لحمه لذيذ ، ودهنه كثير ، كما أننا نستعمل جلده فى صنع الأحذية والسياط !! » .

قال مُحمَّد : «ولكن أين الحراب والسهام التى تصيدون بها ؟» .

ردَّ الصيَّاد : « إنَّ جلد أفراس النهر سميك جداً ، ولا يؤثر فيه السلاح !! ولذلك فأنت ترانا نحمل قفصاً خشبياً ضخماً !! » .

سَألَ مُحَمَّدٌ : « وماذا تَفْعَلُونَ بِهِ ؟ » .

أجابَ الصَّيَّادُ : « إنَّنا نَنتَهِزُ الفُرْصَةَ ، حَتَّى إذا وَجَدْنا أحَدَ أفْرَاسِ النَّهْرِ مُنْفَرِداً فى إحْدَى البُحَيْرَاتِ الصَّغيرةِ ، فإنَّنا نُسْقِطُهُ فَوْقَهُ ونَرْقُبُهُ وَهُوَ مَحْبُوسٌ فى البُحَيْرةِ حَتَّى يَمُوتَ مِنَ الجُوعِ فَنَسْحَبُهُ إلى البَرِّ .. » .

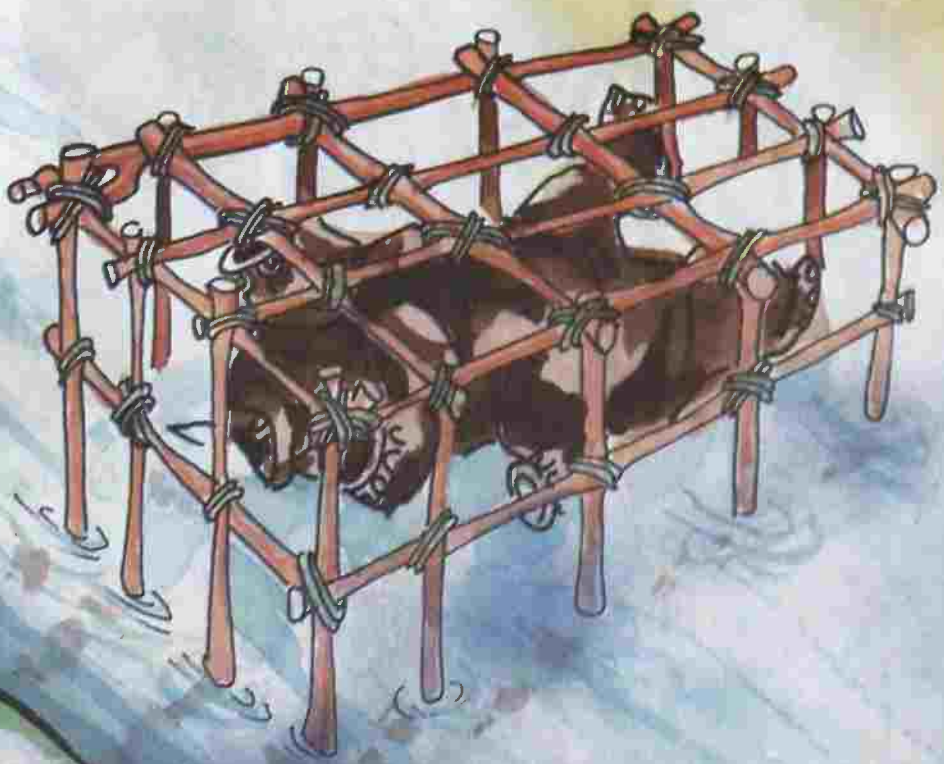

سَبَّبَ كَلامُ الصَّيَّادِ الضِّيْقَ لِمُحَمَّدٍ وَلَمْ يَنْتَظِرْ حَتَّى يَرَى صَدِيقَهُ فَرَسَ النَّهْرِ وَهُوَ يَمُوتُ مِنَ الجُوعِ ، فَتَرَكَ الصَّيَّادِينَ وَرَحَلَ إِلَى سَفِينَتِهِ .

وَفِي السَّفِينَةِ اسْتَقْبَلَتِ الحَيَوَانَاتُ مُحَمَّداً بِالتَّرْحَابِ المَعْهُودِ ، وَبَدَأَتِ القُرْعَةُ فَوْراً ..

وَكَانَتْ مِنْ نَصِيبِ « الكُنْغُر » .. الَّذِي أَخَذَ يَقُودُ السَّفِينَةَ إِلَى بِلادِهِ .

الناشـــر : دار الرشـاد
العنـــوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفـــون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيداع : ٩٨ / ٨٢٨٠
الترقيم الدولى : 977 - 5324 - 66 - 1
الطبـــع : عربية للطباعة والنشر
العنـــوان : ١٠ ، ٧ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفـــون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣
الجمـــع : أرمس
العنـــوان : ٣٢ شارع عل عبد اللطيف ـ مجلس الأمة
تليفـــون : ٣٥٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م